الفصل الرابع

علم الكلام
فيما ينبغي أن يكون

obeikandl.com

obeikandl.com

١

هذه المسائل التى ذكرناها تكوِّن ـ مع فروعها ولوازمها ـ ثلاثة أرباع علم الكلام التقليدى على التقريب .

وقد يتساءل القارئ عن علم الكلام : فيم ينبغى أن يكون؟..

وعلم الكلام - فيما ينبغى أن يكون - إنما يدور حول النبوة أولاً .. إنه يدور حول إثباتها على وجه العموم ، وإثباتها فى استفاضة على وجه الخصوص بالنسبة لسيِّدنا محمد خاتم النبيين وسيِّد المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- .

ويدور ثانياً حول بيان أن الدعوة ـ فى آياتها المحكمات ـ إنما هى: آيات بيِّنات فى صدور الذين أُوتوا العلم ، وأن الذين يرتابون فيها هم المُبطلون ، وأن الذين يجحدون بها هم الظالمون . وبتعبير آخر : يتركز علم الكلام فى الداعى والدعوة.. إنه يتركز فى الداعى فى صورة مستفيضة ، ويتركز فى الدعوة على صورة مجملة .

وهذا الذى نذكره : إنما هو المنهج الذى اختطَّه « القرآن » .

والآية الكريمة التالية : تجمع الجانبين ، يقول الله تعالى :

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١).

وهذا فى شأن الداعى ، وتستمر الآيات ، فيقول الله تعالى :

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٨ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٩ .

وهذا فى شأن الدعوة..

وهذا المنهج هو منهج الرسول ﷺ ، يتابع فيه القرآن ؛ فإنه ﷺ حين أُمر بالجهر بالدعوة : تحدَّى العرب بصدقه : أى أنه ﷺ كان يبين صدق الداعى .

ولما جاءه عُتبة يفاوضه فى شأن النزول عن دعوته : لم يعمل ﷺ شيئاً سوى أنه قرأ عليه صدر السورة الكريمة « سورة فُصِّلت» .

وهذا المنهج : هو الذى اتَّبعه أصحاب الآفاق الواسعة من البشر فى الوصول إلى تعرُّف الحقيقة عن طريق : حال الداعى، وقيمة الدعوة ، وهو المنهج الذى نريد أن نلتزمه إن شاء الله تعالى متخذين من الوسائل لذلك آراء بعض الذين اتَّبعوه ، ومن الله نرجو العون والهداية .

* * *

٢

إن الله يصطفى من الناس رسلاً .. يقول تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١)..

يصطفيهم فيُعِدُّهم إعداداً خاصًّا قبل ميلادهم ، يُعِدُّهم فى أصلاب أجدادهم وآبائهم ، فيتخير الله عز وجل لهم الأجداد والآباء .. يقول الإمام البوصيرى عن رسول الله ﷺ :

لم تَزلْ فى ضمائرِ الكَوْنِ تُختا ... رُ لـكَ الأُمَّهَـاتُ والآبَـاءُ

ويقول : أبانَ مولدُه عن طِيبِ عُنصرِهِ ...

يُعِدُّ سبحانه أوعيتهم ـ الجدَّات والأمهات ـ : خَلْقاً وخُلُقاً ، ويُعِدُّ سبحانه الرسل - بعد ميلادهم - : وسطاً ، وبيئةً .

يُعِدُّهم على عينه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾(٢) .

---

(١) سورة آل عمران : ٣٣ .

(٢) سورة طه : ٣٩.

ويصطنعهم لنفسه : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[1] .

ويقول ﷺ - عن كل ذلك - فيما رواه الإمام مسلم :

« **إن الله اصطفى من ولد إبراهيم : إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل : بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة : قريشاً ، واصطفى من قريش : بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم** » .

لقد رسم الله ماضيهم البعيد ، ورسم حاضرهم الذى عاشوه طفولةً فشباباً فكهولةً فشيخوخةً ، منذ الأزل ..

يقول سبحانه وتعالى فى سيِّدنا عيسى - عليه السلام - :

﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾[2] .

﴿ **وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** ﴾[3] .

وهذا الذى يذكره الله -عز وجل - بمناسبة سيِّدنا عيسى عليه السلام: من أنه كان أمراً مقضيًّا ، قبل ميلاده : ليس خاصًّا بسيِّدنا عيسى، وإنما هو عامٌّ فى كل الأنبياء والرسل .. إن أمرهم كان مقضيًّا قبل أن يولدوا ، بل إن الله -سبحانه وتعالى- : قضى فى أزله أن يكونوا ذَوِى حَسَبٍ فى قومهم ، وذَوِى منعةٍ من عشيرتهم .

* * *

٣

وللرسل والأنبياء علامات مميِّزة ، وسمات محدِّدة يتحدث عنها ابن خلدون حديثاً دقيقاً ، فيقول :

---

(١) سورة طه : ٤١ .

(٢) سورة آل عمران : ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) سورة مريم : ٢١ .

« اعلم أن اللَّه سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً خَصَّهم بخطابه ، وفَطَرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده ، يعرِّفونهم بمصالحهم ، ويحرِّضونهم على هدايتهم ، ويأخذون بحجزاتهم عن النار ، ويدلونهم على طريق النجاة .

وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويُظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار والكائنات المُغيَّبة عن البشر ، التى لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم. قال ﷺ :

« أَلَا وإنِّى لا أعلمُ إلا ما علَّمنى الله » .

واعلم أن خبرهم فى ذلك من خاصيته وضرورته الصدق ، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة .

وعلامة هذا الصنف من البشر : أن توجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشية أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شىء ، وإنما هى فى الحقيقة استغراق فى لقاء المَلَك الروحانى بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية إما بسماع دَوِىٍّ من الكلام فيتفهمه ، أو يتمثل له فى صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله . ثم تنجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما أُلقى إليه . قال ﷺ وقد سئل عن الوحى : **« أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه علىَّ فيفصم عنِّى وقد وعيتُ ما قال ، وأحياناً يتمثل لى المَلَكُ رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول »** . ويدركه فى أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبَّر عنه . ففى الحديث :

« كان مما يعالجُ من التنزيل شِدَّةٌ » .

وقالت عائشة : **« كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه لَيتفصَّدُ عَرَقاً »** .

وقال تعالى : **﴿ إنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾**[1] .

---

(١) سورة المزمل : ٥ .

ولأجل هذه الحالة فى تنزُّل الوحى كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون : له رَئِيٌّ أو تابعٌ من الجن ، وإنما لُبِّس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[1].

ومن علاماتهم أيضاً : أنه يوجد لهم قبل الوحى خُلُق الخير والزكاة ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع - وهذا هو معنى العصمة - وكأنه مفطور على التنزُّه عن المذمومات والمنافرة لها؛ وكأنها منافية لجبلَّته. وفى الصحيح أنه ﷺ حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره ، فانكشف ، فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره ؛ ودُعِىَ إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزَّهه الله عن ذلك كله ، حتى إنه بجبلَّته يتنزَّه عن المطعومات المستكرهة ؛ فقد كان ﷺ لا يقرب البصل والثوم ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال :

« إنِّى أُناجى مَنْ لا تُناجون » .

وانظر لما أخبر النبى ﷺ خديجة - رضى الله عنها - بحال الوحى أول ما فجأته وأرادت اختباره ، فقالت : اجعلنى بينك وبين ثوبك ، فلما فعل ذلك ذهب عنه ، فقالت : إنه مَلَكٌ ، وليس بشيطان .

ومعناه : أنه لا يقرب النساء .

وكذلك سألته عن أحبِّ الثياب إليه التى يأتيه فيها .

فقال : البياض والخضرة .

فقالت : إنه المَلَك .

يعنى أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسواد من ألوان الشر والشياطين ، وأمثال ذلك .

ومن علاماتهم أيضاً : دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة

---

(١) سورة غافر : ٣٣ .

والعفاف ، وقد استدلَّت خديجة على صدقه ﷺ بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخُلُقه .

وفى الصحيح أن «هرقل» حين جاءه كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام ؛ أَحْضَرَ مَنْ وجد ببلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ؛ ليسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال : بم يأمركم ؟

فقال أبو سفيان : بالصلاة والزكاة والصِّلة والعَفَاف ... إلى آخر ما سأل فأجابه ، فقال :

« إنْ يكنْ ما تقول حقًّا فهو نبىٌّ ، وسيملك ما تحت قدمىَّ هاتين».

والعفاف الذى أشار إليه هرقل : هو« العصمة» ..

فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة ، دليلاً على صحة نبوته ، ولم يحتجْ إلى معجزة ؛ فدلَّ على أن ذلك من علامات النبوة .

ومن علاماتهم أيضاً : أن يكونوا ذوى حسب فى قومهم . وفى الصحيح : **«ما بعثَ الله نبيًّا إلا فى مَنعةٍ من قومه »** ، وفى رواية أخرى : **« فى ثروة من قومه»** [استدركه الحاكم على الصحيحين] . وفى مساءلة هرقل لأبى سفيان كما هو فى الصحيح قال: « كيف هو فيكم ؟ »

قال أبو سفيان : « هو فينا ذو حَسَب» .

فقال هرقل : « وكذلك الرسل تُبعث فى أحساب قومها ».

ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنع عنه أذى الكفار حتى يُبلِّغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه ومِلَّته .

ومن علاماتهم أيضاً : وقوع الخوارق لهم شاهدةً بصدقهم ، وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها ؛ فسُمِّيت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور العباد ، وإنما تقع فى غير محـلِّ قدرتهم»[1] اهـ .

(١) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق :الدكتور على عبد الواحد وافى .

فإذا أصبحت نفوسهم - بتربية الله وعنايته - أهلاً للتلقِّى فاجأها الوحى وهى سائرة فى الوادى المقدس ، وفى البقعة المباركة:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (١).

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) .

ويفاجئها الوحى وهى فى غار حراء ..

وعندنا فى الإسلام الوثيقة الوحيدة فى العالم كله عن كيفية بدء الوحى وهى وثيقة تحمل فى طيَّاتها كثيراً من المعانى الخاصة بالنبوة وبصفات الرسول ﷺ ، وهى تشير - فى صراحة ويسر وسهولة - إلى كثير من الآيات الدالة على صدق رسول الله ، وخاتم النبيين ، ولا مناص من الاستفاضة فى شرحها وتحليلها فهى ذخيرة من العبرة والهداية للمتأملين ، وهذه الوثيقة رُويت بشتَّى الطرق

---

(١) سورة طه : ٩ - ١٦ .

(٢) سورة القصص : ٢٩ ، ٣٠ .

وبمختلف الأسانيد ، والقرآن يشير إلى الحالة التى نذكرها بصراحة لا لبس فيها .. يقول سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١).

ويقول سبحانه :﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾(٢).

أما الوثيقة التى نتحدث عنها ، فإننا ننقلها هنا عن أصحِّ الكتب بعد كتاب الله تعالى ، وهو كتاب صحيح البخارى : عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

« أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخَلَاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنَّث فيه ، وهو التعبُّد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزوَّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه المَلَكُ فقال : اقرأ .

قال : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذنى فغَطَّنِى ، حتى بلغ مِنِّى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ .

فأخذنى فغَطَّنِى الثانية ، حتى بلغ مِنِّى الجهد ، ثم أرسلنى، فقال : اقرأ .

فقلت: ما أنا بقارئ .

فأخذنى فغَطَّنِى الثالثة ، ثم أرسلنى ، فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾(٣).

فرجع بها رسول الله ﷺ ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد – رضى الله عنها – فقال : زَمِّلونى . فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيتُ على نفسى .

---

(١) سورة الشورى : ٥٢ .

(٢) سورة الشعراء : ١٩٣- ١٩٥ .

(٣) سورة العلق : ١ – ٣ .

فقالت خديجة :

كلاَّ واللهِ ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتَقْرِى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى - ابن عم خديجة - وكان امرأً قد تنصَّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة :

يا بنَ عَمّ ، اسمعْ من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا بن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نَزَّلَ اللهُ على موسى ، يا ليتنى فيها جَذَعاً ، ليتنى أكون حيًّا إذْ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : أَوَمُخرجىَّ هم ؟

قال : نعم ، لم يأتِ رجل قَطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودِىَ ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى» .

قال ابن شهاب : وأخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال وهو يحدِّث عن فترة الوحى عن رسول الله ﷺ ، فقال فى حديثه:

« بَيْنَا أنا أمشى ، إذْ سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ بصرى ، فإذا المَلَكُ الذى جاءنى بحراء ، جالس على كرسىٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه فرجعتُ فقلتُ : زمِّلونى، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (١)، فَحَمِىَ الوحى وتتابع » .

ولنبدأ الآن بتحليل هذه الوثيقة الغنية بالمعانى ، الزاخرة بالمفاهيم ، الثرية بالدلالات. .

---

(١) سورة المدثر : ١ - ٥ .

٥

تقول السيدة عائشة - رضى الله عنها - :

« **أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح** ... » .

وتعبير السيدة عائشة يُفهم منه أن الرؤيا الصالحة من الوحى ، ومن الأحاديث التى تسند هذا وتؤيده : الأحاديث التى ترشد إلى أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وهذا الذى قالته السيدة عائشة هو أحد الأدلة على النبوة ، والذى انتهى إليه عباقرة الفكر وأساطين الآفاق الذهنية الرحبة .

فهذا هو الفارابى يتحدث فى كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) عن الرؤيا فيكتب فصلاً مستقلاً عن سبب المنامات ، ثم يُتبع هذا مباشرة بفصل آخر (فى الوحى ورؤية المَلَك) .

وهو يرى أن الرؤيا الصادقة إنما هى اتصال بين الأرض والسماء يتم حينما تكون المُحسَّات الواردة عن طريق الحواسِّ لا تستغرق القوة المتخيلة استغراقاً تامًّا .

وهذا الذى يتم من هذه الصلة ، حينما تكون الحواسُّ معطلة بالنوم : قد جرَّبه أكثر الخلق ، إن لم يكن كلهم ؛ فجميع الناس - إذن - عندهم جزء من النبوة ، يرشدهم إلى الاستدلال على صحتها وإمكانها ؛ إذا تبصَّروا فيه وتروَّوا فى أمره .

وهذه الفكرة تُسلمنا إلى التحدث عن رأى الإمام الغزالى : إنه يتحدث فى كتابه (إحياء علوم الدين) فى الاستدلال على أن الاتصال بين السماء والأرض - فى صورة الوحى - أمر ممكن وموجود ، ويذكر الدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على جحده. ويراه أمرين :

أحدهما : - وهو الذى سنقتصر على ذكره هنا إن شاء الله تعالى- عجائب الرؤيا الصادقة :

فإنه ينكشف بها الغيب - وإذا جاز ذلك فى النوم ، فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة ، فلن يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواسّ ، وعدم اشتغالها بالمُحسَّات: فكم من مستيقظ غائض لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

بيد أن الإمام الغزالى يفصِّل الأمر بعض التفصيل ، حينما يعود إلى الموضوع فى كتابه (المنقذ من الضلال) فيشرح الأمر فى صورة أوفى نوعاً ما ، إنه يقول :

« وقد قرَّب الله تعالى ذلك على خَلْقه ، بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب : إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يجرِّبه الإنسان من نفسه - وقيل له : إن من الناس من يستيقظ مغشيًّا عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب - لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحسَّاسة من أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها : فبأن لا يدركها مع ركودها أَوْلَى وأحق ، وهذا نوع قياس يكذِّبه الوجود والمشاهدة، فكما أن للعقل طوراً من أطوار الآدمىّ ، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات والحواسّ معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر فى نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل » .

ولقد حددت السيدة عائشة - رضى الله عنها - الرؤيا بأنها الصالحة ، وهذا التحديد له أهمية كبرى ، فما من شك أن الأمر كما يقول الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - :

- « الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ».

- « وإن الرؤيا من الله ، والحُلم من الشيطان » .

- « وإن رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

- « وإنه لم يبقَ من النبوة إلا المُبشِّرات .

قالوا : وما المبشِّرات ؟

قال: الرؤيا الصالحة » .

هذه الأحاديث التى نقلناها عن الإمام البخارى ـ رضى الله عنه ـ تساندها أحاديث أخرى ، وينتهى الأمر بالأحاديث إلى تقسيم ما يراه النائم إلى ثلاثة أقسام : (قسم من الله وهو الرؤيا الصادقة ، وقسم من الشيطان ، وقسم مما يحدِّث به الرجل نفسه فى اليقظة فيراه فى النوم) .

وهذه الأقسام تشتمل على جميع ما يراه الإنسان فى النوم .

أما العلم الحديث فقد بيَّن فى وضوح تام أثر العوامل الخارجية، والعوامل الداخلية الباطنية فى الرؤيا .

« لقد أبان (فرويد) - فى جَلاَءٍ - أثر الميول الكامنة فى تشكيل الرؤى والأحلام ، وخاصة لدى الكهول والشبان. واستطاع (هرفى) و (مورى) أن يبرهنا على أن الحلم - غالباً - ما يكون امتداداً لإحساس سابق ، أو نتيجة لإحساس مقارن ، فقد يحلم الإنسان بحريق فى حجرته فى الوقت الذى يقع فيه بصيص من الضوء على حدقته فى أثناء نومه ، أو بأنه يُضرب على أثر ألم فى ظهره . وقد حدث مرة أن رأى شخص أن داره تنهار به فى الوقت الذى انكسرت فيه إحدى قوائم سريره ، ولقد وصل الأمر بـ «هرفى» أن ظن ـ بناء على ما سبق ـ أنه يمكن أن يتصرَّف الإنسان فى أحلامه ويشكِّلها كما يشاء .

فمتى ربط صلةً بين بعض الإحساسات وذكريات معينة ؛ استطاع فى نومه استعادة هذه الذكريات بإثارة الإحساسات المتصلة بها .

وقديماً حاول الإغريق أن يحتفظوا بأحلامهم أو يثيروها بواسطة بعض الطقوس الدينية» [1] .

---

(١) عن كتاب « فى الفلسفة الإسلامية » للدكتور إبراهيم بيومى مدكور .

وهذا الذى يذكره العلم الحديث فى تفسير الرؤيا حق لا مِرَاء فيه ..

بيد أن فيه قصوراً واضحاً وجوهريًّا عن التفسير الدينى للرؤيا..

فالدين يذكر ما يذكره العلم الحديث ، ويزيد عليه ما هو بدهىٌّ عند كل إنسان : من وجود نوع « الرؤيا الصادقة » هو كشف للغيب وتنبؤ به ، سواء أكان غيباً مكانيًّا ، أم غيباً زمانيًّا . وهذا النوع من الرؤيا الصادقة تعترف به الأديان السماوية الكبرى جميعها ، فهى تتحدث عن رؤيا يوسف عليه السلام ، ورؤيا الملك الذى استدعى يوسف عليه السلام من السجن لتأويل رؤياه ، ويقول القرآن الكريم فى شأن رسولنا عليه الصلاة والسلام :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ﴾[1] .

بيد أن الطريف فى موضوع الرؤيا : أن لها معبِّرين أو مؤوِّلين أو مفسِّرين : فإنها - فى الأغلب الأعم-: رمزية ، وحل هذه الرموز إنما هو فن قائم بنفسه ، اشتهر به رجال ، وكُتبت فيه كتب.

فمن الرجال مثلاً : محمد بن سيرين ، وعبد الغنى النابلسى ، وخليل بن شاهين الظاهرى ، وكل منهم ألَّف فى هذه المادة كتاباً .

ولقد كان رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه - يسأل الصحابة - رضوان الله عليهم - عن رؤياهم ويعبِّرها لهم ، ويحدِّثهم هو أحياناً عن رؤيا له ويعبِّرها ، ومن ذلك ما قاله - صلوات الله وسلامه عليه - فيما رواه مسلم :

« رأيتُ ذاتَ ليلة فيما يرى النائم كأنَّا فى دار عقبة بن رافع ، فأُوتينا برُطَبٍ من رُطَبِ ابن طاب .. فأوَّلتُ الرفعة لنا فى الدنيا ، والرفعة فى الآخرة ، وأن ديننا قد طاب » .

---

(١) سورة الفتح : ٢٧ .

وتعبير الرؤيا وتفسيرها فن يشترك فيه الآن علماء التحليل النفسى ، وهؤلاء الذين يلهمهم الله التعبير من الصالحين .

بيد أن علماء التحليل النفسى يقتصرون على تعبيرها فى جوانبها الحسِّية المادية ويكتفون بذلك ، أما الآخرون : فإنهم يعبِّرونها فى جوانبها الغيبية الصادقة .

ولا يضير الحق أن يسجن علماء التحليل النفسى أنفسهم ، وأن يسجن العلم الحديث نفسه فى سجن المادة والحواسِّ ، فإن الحق فى أمر الرؤيا واضح أبلج ، والناس من شرقيين وغربيين ، ومن قدماء ومُحدَثين : يلاحظون وجود الرؤيا الصادقة ، ووقوعها يجرى فى دائرة تجاربهم .

* * *

٦

بعد أن تحدثت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها- أن :

« أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ... » .

بعد أن ذكرت السيدة عائشة هذا ، أخذت تصف حال رسول الله - صلوات الله عليه وسلامه - قبل الوحى :

لقد حبَّب الله إليه الخلاء ؛ فكان يغادر مكة ، ويبتعد عن حياتها الصاخبة ، التى كان يرى فيها من الضلال الشىء الكثير .

يتركها ؛ ليخلو بغار حراء فريداً ، يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبداً ، خاشعاً طالباً رضاه ، وآملاً فى هدايته .

كان يتحنَّث فى هذا الغار ، أى : يتعبَّد فيه الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود ليعود من جديد إلى النُّسُك ، وإلى العبادة .

لم يكن -إذن - يطلب مالاً ، أو ثراء ، أو لذة مادية ، أو جاهاً ، أو مجداً عند الناس ، إنه يطلب الهداية ويبحث عنها .

ولقد وضح عزوفه عن زخارف الحياة وضوحاً بيِّناً فى قوله وسلوكه .

وتذكر السيرة النبوية نبأين لهما مغزى واحد عميق :

أما النبأ الأول فهو : أن عُتبة بن ربيعة ، وكان سيِّداً فى قومه ، قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده :

يا معشر قريش ، أَلَا أقوم إلى محمد فأكلِّمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ؛ فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ؛ قُمْ إليه فكلِّمْه.

فقام إليه عُتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال :يا بن أخى ، إنك منا حيث قد علمت : من البسطة فى العشيرة ، والكمال فى النَّسَب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم ، وعِبْتَ به آلهتهم، وكفَّرت مَنْ مضى من آبائهم ، فاسمعْ منِّى أَعرضْ عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منِّى بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ : « **قُلْ يا أبا الوليد ؛ أسمعْ** » .

قال : يا بن أخى ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ؛ جمعنا لك من أموالنا ؛ حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا ؛ حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلكاً ملَّكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه ، لا تستطيع ردَّه عن نفسك ؛ طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يُداوَى منه ..

حتى إذا فرغ عُتبة ، ورسول الله ﷺ يسمع منه ، قال :

« **أقد فرغتَ يا أبا الوليد ؟** » .

قال : نعم .

قال : « **فاسمعْ منِّى** » .

قال : أفعل .

فقال ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ...﴾ (١) .

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه .

فلما سمعها منه عُتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال :

« **قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ ، فأنتَ وذاك** » .

فقام عُتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلفُ باللهِ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به !!!

فلما جلس إليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ » ..

قال : « ورائى : أنى سمعتُ قولاً ، واللهِ ما سمعتُ مثله قَطُّ . واللهِ ما هو بالشعر ، ولا بالسِّحر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه فواللهِ ليكونن لقوله الذى سمعتُ منه نبأٌ ، فإنْ تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلكه مُلككم وعزُّه عزُّكم ، وكنتم أسعد الناس به » .

قالوا : « سَحَرَكَ واللهِ - يا أبا الوليد - بلسانه » .

(١) سورة فصلت: ١ - ٥ .

قال : « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » .

قد يقول قائل : إن هذا العرض قد عُرض على محمد من فرد واحد ، ولو أنه عُرض عليه من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل ..

وهذا القول : ينقضه أن عُتبة كان مفوَّضاً من زعماء قريش ، وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذى ترويه كتب السيرة ، وهو :

« لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث - أخو بنى عبد الدار - وأبو البخترى بن هشام ، والأسود ابن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام - عليه لعنة الله - وعبد الله بن أبى أُميَّة ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحَجَّاج السَّهميَّان ، وأُميَّة بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض :

ابعثوا إلى محمد فكلِّموه ، وخاصموه ؛ حتى تُعْذَروا فيه ..

فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلِّموك ؛ فَأْتِهِمْ .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلَّمهم فيه بدو - وكان عليهم حريصاً ؛ يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم - حتى جلس إليهم ، فقالوا له :

يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلِّمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخلَ على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء وعِبْتَ الدِّين وشتمت الآلهة وسفَّهت الأحلام ، وفرَّقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بينهم وبينك .. فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً ؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً . وإن كنت تطلب به الشرف فينا ؛ فنحن نسوِّدك علينا . وإن كنت تريد به مُلكاً ؛ مَلَّكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمُّون التابع من الجِنِّ رَئِيًّا ـ فربما كان ذلك ؛ بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نُبرئك منه أو نُعْذَرَ فيك.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ :

« ما بى ما تقولون ، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم ، ولكنَّ الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىَّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلَّغتكم رسالات ربى ، ونصحتُ لكم ؛ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه علىَّ أصبرْ لأمر الله ؛ حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والثراء ، وعن الدنيا كلها ، تؤيده حياته ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ من أولها إلى آخرها ، ويؤيده القرآن تأييداً حاسماً صريحاً :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١).

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾(٣).

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(٤).

وعن جبير بن نفير ـ رضى الله عنه ـ قال : دخلت على عائشة ـ رضى اللَّه عنها ـ فسألتها عن خُلُق رسول اللَّه ﷺ ؟ فقالت: (كان خُلُقه : القرآن) .

---

(١) سورة سبأ : ٤٧ .
(٢) سورة هود : ١٥، ١٦ .
(٣) سورة الإسراء : ١٨ .
(٤) سورة الحديد : ٢٠ .

وحقيقة الأمر أن رسول الله ﷺ كان فى كل ما يأتيه وكل ما يدعه قرآناً مطبَّقاً، ومن هنا كان قول الله - سبحانه وتعالى- فى بيان ذلك فى شأنه ﷺ :

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(١) .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢) .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ (٤).

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ (٥).

كانت تأتيه الدنيا ، فينفقها وهو جالس.. فقد أتى إليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ سبعون ألف درهم ، فوضعها ـ كما يروى هارون بن رباب ـ على حصير، ثم قام إليها يقسِّمها ، فما ردَّ سائلاً حتى فرغ منها .

وبينما هو عائد من حُنين ، تكاثرت الأعراب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه، فوقف رسول الله ﷺ ، وقال :

«أعطونى ردائى ، لو كان لى عددُ هذه العَضَاة (شجر عظيم له شوك) نعماً لقسَّمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ، ولا كذَّاباً ، ولا جباناً ».

ويقول ـ صلوات الله وسلامه عليه - لأصحابه : **« ما لى وللدنيا »** .

ويقول ﷺ : **« عُرضتْ علىَّ الدنيا ؛ فَأَبَيْتُهَا »** .

وقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

«خُيِّرتُ بين أن أكون عبداً رسولاً أو مَلِكاً رسولاً ، فاخترتُ أن أكون عبداً رسولاً» .

---

(١) سورة الأنعام : ٥٠ ، وسورة يونس: ١٥ .
(٢) سورة القلم : ٤ .
(٣) سورة الجاثية : ١٨.
(٤) سورة الرعد :٣٧ .
(٥) سورة هود : ١١٢.

ولقد كان رسول الله ﷺ - كما يروى عن أنس، رضى الله عنه - أحبَّ شخص إلى الأنصار والمهاجرين، ولكنهم كانوا إذا رأوه لا يقومون له، لما يعرفون من كراهيته له (أى : القيام له)، ويقول ﷺ لأصحابه :

« إن الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ».

ويقول ﷺ لأصحابه وهم جالسون حوله :

« إن مما أخافُ عليكم من بعدى : ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ».

إن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما كان يتطلع إلى الدنيا فى مختلف جوانبها - وهو يقرأ قوله تعالى - :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١).

عزوفه ﷺ عن الدنيا : قضية هى من البداهة ؛ بحيث تفجأ فى النظرة الأولى كل دارس لسيرته ﷺ.

وحينما رفعه الله إليه، لم يترك الضِّياع والعمارات والبساتين، ولم يترك الآلاف المؤلَّفة من الذهب والفضة، وإنما ترك وراءه مبادئ الحق التى أوحاها الله إليه، والتى مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله فى سبيل إقامتها ونشرها ويكافح كفاحاً لا يهدأ ولا يفتر فى سبيل تدعيمها.

وترك وراءه رجالاً يؤمنون بهذه المبادئ، وبأنهم مكلَّفون ـ باعتبارهم من المسلمين ـ بنشرها وإذاعتها بين أرجاء العالم أجمع.

وترك عبيراً يتضوَّع رحمةً، ويشعُّ نوراً، مهما طالت القرون وتطاولت الأزمنة.

إنه ﷺ: هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآنى، فكان ﷺ : عازفاً عن الدنيا،

---

(١) سورة آل عمران : ١٤.

ما فى ذلك من شك .. وكان عازفاً عن الدنيا ؛ لسعيه وراء الآخرة ، وعزمه المصمِّم على أن يكون - فيما يأتى وفيما يَدَع - مُرضياً الله تعالى ، ومَرْضِيًّا منه سبحانه ؛ ومن كان كذلك كان صادقاً حتماً .

وعزوفه عن الدنيا : من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه - صلوات الله وسلامه عليه - .

* * *

٧

أخبر رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه - خديجة - رضى الله عنها - بما حدث له وقال : « **لقد خشيتُ على نفسى** » .

فقالت السيدة الكريمة :

« كلاَّ ، واللهِ ما يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتُكسب المعدوم ، وتَقرى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق » .

لم تطلب السيدة خديجة - رضوان الله عليها - دليلاً ، ولا إثباتاً ، ولا برهاناً ، ولا معجزة ، وإنما استدلَّت بحالته ، وبحياته ، وبأخلاقه ، على صدقه - صلوات الله وسلامه عليه - .

وإذا كان علماء الكلام يكادون يقصرون كلامهم - فى إثبات النبوة - على المعجزة ، فإن آفاقاً من التفكير أوسع ، وإشراقاتٍ من الإلهام أَسْمَى ، تتجه بالاستدلال إلى وسائل أخرى مضافة إلى المعجزة .

يقول الإمام الغزالى :

« **فإنْ وقع لك الشك فى شخص معين : أنه نبىٌّ أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة أو التواتر أو التسامع ؛ فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء ، بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم ،**

وإن لم تشاهدهم ، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون «الشافعى» - رحمه الله - فقيهاً، وكون (جالينوس) طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب ، وتطالع كتبهما وتصانيفهما ؛ فيحصل لك علم ضرورى بحالهما .

فكذلك ، إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر فى القرآن ، والأخبار ؛ يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة .

وأُعضِّد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب .

وكيف صدق فى قوله ﷺ: « **مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ ؛ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ ما لم يَعلمْ** » .

وكيف صدق فى قوله ﷺ : « **مَنْ أعانَ ظالماً ؛ سلَّطه الله عليه** » .

وكيف صدق فى قوله ﷺ : «**مَنْ أصبحَ وهُمومُهُ هَمٌّ واحدٌ (هو التقوى) ؛ كَفَاهُ الله تعالى همومَ الدنيا والآخرة** » .

فإذا جرَّبت ذلك فى ألف ، وألفين ؛ حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه .

فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة ، لا مِنْ قَلْبِ العصا ثعباناً ، وشَقِّ القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تنضمّ إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر : ربما ظننت أنه سحر وتخييل . وإنه من الله : إضلال ؛ فإنه :

﴿ **يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ** ﴾[1] .

وترد عليك أسئلة المعجزات : فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة ؛ فينجزم إيمانك بكلام مرتَّب فى وجه الأشكال والشبهة عليها .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن فى جملة نظرك ؛ حتى يحصل لك علم ضرورى لا يمكنك ذكر مستنده على التعيُّن ، كالذى يخبره جماعة بخبرٍ متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معيَّن ، بل من حيث لا يدرى ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد .

---

(١) سورة النحل : ٩٣ .

فهذا هو الإيمان القويُّ العمليُّ .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية».

وينحو الإمام الغزالى فى اتجاهه هذا إلى أن إثبات النبوة : له ـ فضلاً عن المعجزة ـ طريقان :

أحدهما : حالة الشخص .

ثانيهما : دعوته .

وإذا كان الإمام الغزالى ينحو هذا النحو : فإنما هو فيه مُتَّبِع للقرآن الكريم، فقد تحدَّث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى ، وهى القرآن نفسه ، وتحدَّى العرب به .

لقد تحدَّاهم به فى عنف ، وتحدَّاهم متدرِّجاً بهم ، إذْ طلب إليهم - أولاً-أن يأتوا بمثله ، فقال تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) .

فلما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

فلما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بسورة من مثله :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) سورة هود : ١٣ .

(٣) سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .

أما عن حياته -صلوات الله وسلامه عليه - فإن القرآن : تحدَّث عنها من زوايا مختلفة ..

لقد تحدَّث عنها فى صراحة لا لبس فيها ، وتحدَّث عنها فى إشارات ذات مغزى ، وتركنا - فضلاً عن ذلك - نستنتج من الأخبار الكثيرة التى قصَّها عنه: جوانب - لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى - من السموِّ الأخلاقى الكريم .

لقد تجرد - صلوات الله وسلامه عليه - من كل مطمح دنيوى :

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١) .

ولقد لبث فيهم -من قبل - أربعين عاماً ، فلم يحدِّثهم بنبوة ولا برسالة :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

ويطلب إليهم القرآن الكريم أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هذا ، الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٣).

ويشرح الزمخشرى هذه الآية شرحاً لطيفاً فيقول ما ملخصه :

إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق ، وتخلَّصتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصاً : اثنين اثنين ، وواحداً واحداً «ثم تتفكروا » فى أمر محمد ﷺ .

أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ، متناصفين : لا يميل بهما اتِّباع الهوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح ، والنظر الصحيح ، على جادَّة الحق وسُنَنِهِ .

---

(١) سورة سبأ : ٤٧.

(٢) سورة يونس : ١٦.

(٣) سورة سبأ : ٤٦ .

وكذلك الفرد ، يفكر فى نفسه بعدلٍ وَنَصَفَةٍ ، من غير أن يكابر، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرُّقهم مَثْنَى وفُرَادَى : أن الاجتماع مما يشوِّش الخواطر ويمنع من الرويَّة ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف .

وقد علمتم أن محمداً ﷺ : ما به من جِنَّة ، بل علمتموه : أرجح قريش عقلاً، وآصلهم رأياً ، وأصدقهم قولاً ، وأنزههم نفساً ، فكان مظنَّة لأن تظنوا به الخير، وإذا فعلتم ذلك : كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

ويصف القرآن الكريم جانباً من جوانب حياته ﷺ، ويصف دعوته أيضاً فيقول:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (١).

وإذا وقفنا قليلاً عند هاتين الآيتين ؛ فإننا نجد أن الآية الأولى تريد أن تقول : إنه حتى لو فرضنا أن محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان يقرأ ويكتب ، وكان يتلو من قبله كتاباً ، أو كان يخطُّ بيمينه ، لاقتصر الارتياب على المبطلين فحسب .

ذلك أن معانى الكتاب ، ومفاهيم الدعوة التى أتى بها ، والقواعد والمبادئ التى يبشِّر بها ، كل ذلك : آيات بينِّات فى صدور الذين أُوتوا العلم ، لا ينفيها ولا يجحدها إلا الظالمون ، والظالمون فى كل آونة : يجحدون الحق ، وينكرون المنطق السليم .

ويتوِّج القرآن الكريم تحدُّثه عن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بهذه الكلمة العميقة : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢) .

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

إن الدعوة الإسلامية : آيات بيِّنات فى منطق الحق وفى منطق العقول المستنيرة وها هو ذا أكثم بن صيفى (أحد حكماء العرب) ينهج بفطرته السليمة هذا النهج من الاستدلال على صدق الرسول ﷺ بدعوته . يذكر (الآلوسى) : أنه لما ظهر النبى ﷺ بمكة ، ودعا إلى الإسلام ؛ بعث أكثم بن صيفى ابنه «حُبيشاً» فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم ، وقال لهم - فيما قال -:

« إن ابنى شَافَهَ هذا الرجل مشافهةً ، وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأوثان ، وترك الحَلِفِ بالنيران ، وقد عَرَفَ ذوو الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى تَرْكُ ما ينهى عنه » ..

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان فى أخلاق الناس حَسَناً » .

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة وكريم أخلاق الداعية على صدق الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو المنحى الذى سار فيه جعفر بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ حينما سأله النجاشىُّ عن أمر دينه ، وذلك أنه لما سافر المسلمون بدينهم إلى الحبشة مهاجرين إليها بسبب ما ناالهم من تعذيب أليم؛ أرسل القرشيون وفداً إلى النجاشىِّ ، فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو ابن العاص، لردِّ المهاجرين إلى مكة ليعذبوهم من جديد . ولما التقى الوفد بالنجاشىِّ ، قال له عمرو بن العاص :

إنه قد لجأ إلى بلدك مِنَّا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم: من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم ، لتردَّهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً (أى : أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشيُّ كلامهم رأى أن من الحكمة : ألاَّ يسلِّم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم وحُجَّتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءوا قال لهم :

- ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه المِلَل ؟

فكان الذى كلَّمه : جعفر بن أبى طالب ، فقال له :

« أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطِّع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى مِنَّا الضعيف .

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مِنَّا : نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحِّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار، والكَفِّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة والصيام ...

(وعدَّد عليه أمور الإسلام) ..

فصدَّقناه ، وآمنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده، ولم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا .. فعدا علينا قومنا ، فعذَّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وضَيَّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ؛ خرجنا إلى بلادك ..» .

ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم ؛ بكى النجاشيُّ ، ثم قال :

- إن هذا والذى جاء به عيسى : لَيَخرجُ من مشكاةٍ واحدة .

ثم التفت إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص ، فقال لهما:

«انطلقا ؛ فلا واللهِ لا أُسلمهم إليكما» .

لقد علم النجاشىُّ فور سماعه المبادئ الإسلامية :

(أن هذه المبادئ حق وأنها آيات بيِّنات لا يخفى صدقها على أصحاب الفِطَر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد - صلوات الله وسلامه عليه - إنما يصدر من المنبع الذى كانت تصدر عنه رسالة عيسى - عليه السلام -) .

وبعد .. فإن سيرة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والمبادئ الإسلامية : من أهم الوسائل التى ينبغى أن يتجه إليها المبشِّرون بالدين الإسلامى لنشرها وبيانها .

وهما أيضاً : من أهم الموضوعات التى يجب أن يتجه إليها علماء الكلام الإسلامى ؛ ليكون علم الكلام إسلاميًّا حقًّا .

* * *

٨

* ذهبت السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ مع الرسول ﷺ إلى ورقة بن نوفل ، وقالت له : يا بن عمى ، اسمعْ من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا بن أخى ، ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى .

وتمنى ورقة أن لو كان شابًّا فتيًّا ؛ لينصر الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نصراً مؤزَّراً .

كان ورقة على علم بحياة الرسول ﷺ فى طهرها ونقائها ، ولكنه حينما سمع أول آية من القرآن : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ..﴾[1] لم يملك أن آمن بأن هذا ـ الذى يُتلى ـ إنما هو : وحى من السماء .

إن : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[2] تنص على أن «القراءة» : لا تكون بِاسْمِ وزير ولا أمير، ولا بِاسْمِ منفعة شخصية ، ولا بِاسْمِ مصلحة إقليمية ، ولا بِاسْمِ غاية مادية أيًّا كانت ، ولا بِاسْمِ وطن أو بيئة ، وإنما هى : بِاسْمِ الله .

وإذا كانت بِاسْمِ الله ، فإنها تفيد الشخص باعتباره فرداً ..

وتفيد المجتمع الخاص الذى نسمِّيه «وطناً» ..

وتفيد المجتمع الإسلامى العام ..

بل وتفيد الإنسانية جمعاء .

وإذا تجرَّدت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها - الأول والأخير - هو : الله (مصدر الخير والنور) ؛ كانت خيراً ؛ وكانت نوراً ، فى جميع الأرجاء ، وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن - قَطُّ -بهذه الكلمة الأولى : القراءة وحسب، وإنما كانت القراءة : رمزاً لكل ما يأتيه الإنسان فى الجانب الإيجابى ، وكل ما يَدَعُهُ الإنسان فى الجانب السلبى .

إن هذه الكلمة الأولى : تريد - بمفهومها وروحها - :

اقْرَأْ بِاسْمِ ربك ، تَحَرَّكْ بِاسْمِ ربك ، تكلَّمْ بِاسْمِ ربك ، اعْمَلْ بِاسْمِ ربك .

أما إذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فينبغى أن يكون ذلك أيضاً بِاسْمِ ربك .

ويكون معنى الآية فى النهاية : جَرِّدْ حياتك كلها وكيانك كله : أسباباً وغاياتٍ لله ، سبحانه وتعالى .

وإذا كانت الآية الكريمة واضحة المعنى فى الجانب الإيجابى الذى يحث على القراءة ، والذى يحث على أن تكون القراءة بِاسْمِ الله، فإن الجانب السلبى قد نزلت فيه ـ فيما بعد - آيات صريحة الدلالة واضحة المعنى ، يقول اللّه تعالى :

(١ ، ٢) سورة العلق : ١ .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾(١) .

وأما ما ذُبح على النُّصُب ، فلم يُرَدْ به وجه الله تعالى : فهو أيضاً فسقٌ ؛ لأنه لم يُذكر اسم الله عليه ، فكل ما لم يُذكر اسم الله عليه - إذن -: يجب الامتناع عنه .

أما الإقدام عليه فإنه : فسقٌ ، يتفاوت فى درجته من الرجس زيادةً ونقصاناً .

هكذا يضعنا الإسلام ، منذ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أى : منذ اللحظة الأولى من تاريخه ، على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ، وفى خضمٍّ من التقوى ، وعلى السَّنام من الصدق .

فما دامت الحياة كلها لله فليس هناك مجال للكذب والرياء والنفاق والخديعة وإرادة غير الله بالأعمال .

اقرأ . . والتربية

* يقول الله تعالى فى هذه الآية الأولى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ، ولم يقل : « اقْرَأْ بِاسْمِ اللَّه » ؛ ذلك لأنه سبحانه أراد ، منذ البدء : أن يشير إلى أن هذا الدستور الإلهى النازل من السماء إنما هو «تربية» ، إنه ينزل بِاسْمِ المُرَبِّى ، ومادامت هذه التربية إلهية المصدر ؛ فهى ـ إذن ـ محكمة الإحكام كله ، كاملة فى جميع جوانبها ، وقد قال الله تعالى - فيما بعد - عن هذا الدستور :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى :

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٣).

والتربية التامة تشتمل على جانب العقيدة ، وجانب الأخلاق ، وجانب التشريع ، ولقد نزل الدستور الإلهى - على التوالى - مبيِّناً لكل هذه الجوانب، ومفصِّلاً لها .

---

(١) سورة الأنعام : ١٢١ .

(٢) سورة هود : ١ .

(٣) سورة فصلت : ٤٢ .

ولكن الله سبحانه وتعالى بيَّن - فى هذه الآية التى بين أيدينا - أن هذه التربية يجب أن تُتقبَّل دون تشكك أو تردد ؛ لأنها من الذى خَلَق .

ذلك أن الذى خَلَقَ ، فَكَوَّنَ كل خلية فى الجسم ، ونسَّقها مع غيرها ؛ لتؤدى - ويؤدى الجميع - وظائف معينة .. هذا الذى فصَّل ذلك : محيطٌ علماً بالإنسان المُربَّى ، فهذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق، وإنما هى تربية الخالق نفسه ، الذى أحاط بدقائق الخَلْق، وعرف ما تحتاج إليه مخلوقاته ، وعرف الضار والنافع ، وعرف الخير والشر ؛ فتربيته ـ إذن ـ قيادة على علم ، وهداية على بصيرة ، وهى - من أجل ذلك كله - تربية خالدة ، لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ؛ لأن الإنسان هو الإنسان ، أينما وُجد وأينما كان: لم يتبدَّل خَلْقاً بخَلْق، ولا تركيباً بتركيب .

اقرأ .. والأخلاق

* حينما سمع ورقة بن نوفل هذه الكلمة الأولى ؛ لم يملك أن آمن . . وماذا يمكن أن تقول لشخص تجرَّد إلى الله ، ويدعوك أن تتجرَّد إليه سبحانه ، شخص لم يطلب مالاً ولا جاهاً ، ولا زعامةً ، ولا مُلكاً ، إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها بِاسْمِ ربها ، وأن تقوم فى كيانها كله على أساس من تربية ربها ؟..

ماذا يمكن أن تقول له إذا كان يبشِّر بذلك ؟

أيمكن أن تقول له : إنك كذَّاب .. فما الصدق - إذن - ؟!

أيمكن أن تقول له : إنك منافق .. فأين هو الإخلاص ؟!

اقرأ .. والعلم

* إن هذه الكلمة الأولى قادت ورقة بن نوفل - فور سماعها - إلى الإيمان .. ونعود إليها من جديد ، ونرى إشارتها إلى معانٍ أجملناها فيما سبق .. نريد أن نفصِّل فيها بعض التفصيل :

كانت «اقرأ» دعوة آمرة موجَّهة إلى الثقافة ، إلى العلم ، إلى الفكر، إلى البحث

المستفيض : فى السماء ، وفى الأرض ، وفى الجبال ، وفى البحار ، وفى كل ما خلق الله تعالى من كائنات صغرت أم كبرت.

ولقد اتسم الإسلام منذ هذه الكلمة بالطابع العلمى ، كسمة تجاور السمات الأخرى التى سنتحدث عنها فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (١) :

ذلك أحد شعارات المسلم ، ومن استوى يوماه فهو مغبون ، ومن لم يكن إلى زيادة فهو حتماً إلى نقصان ، وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وإن مِدَادَ العلماء المتقين : ليوزن - فى ميزان الخير والحسنات - بدم الشهداء فيرجح مِدَادُ العلماء.

إن الله - سبحانه وتعالى - قد امتنَّ علينا فى آيات كثيرة من القرآن ، بأنه سخَّر لنا الليل والنهار والشمس والقمر، وسخَّر لنا الأرض والسماء، وما بين الأرض والسماء.

والامتنان الإلهى -بهذا- معناه : دعوة صريحة للمسلمين إلى أن يستجيبوا للتوجيه الإلهى ؛ فيسخِّروا كل ذلك بالعلم والمعرفة ، ويمتلكوا الكون ، مستعملين الملاحظة والتجربة فى نفع الإنسانية .. ولكن العلم والمعرفة فى الإسلام : لا يقتصران على الجانب المادى ؛ لأن النظرة الإسلامية إلى العلم أوسع بكثير وأعمق من النظرة الأوربية التى تقصر العلم على الجانب المادى.

إن العلم المادى ، علم تسخير الكون : يحث عليه الإسلام، ولكنه لا يقف عنده ، فغاية المسلم تتمثل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ (٢) .

وإن﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ : توجِّهنا - مباشرة - نحو هذا المنتهى .. وإذا كنا - كمسلمين - مدعوِّين إلى تسخير الكون ، ومأمورين بتسخيره فى سبيل الله ، وبتذليله رجاء مرضاة اللَّه : فنحن - بهذا - متجهون إلى الله غير ناظرين إلى هذا التسخير للكون ، من حيث هو تسخير ، وإنما إلى المكوِّن (سبحانه).

(١) سورة طه : ١١٤ .
(٢) سورة النجم: ٤٢ .

وبذلك يكون التسخير نفسه عبادة : « **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى اللَّه ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** ».

فالسيطرة على الطبيعة - إذن - فى الوضع الإسلامى الصحيح - : هجرة إلى الله تعالى .

وإنها قراءة بِاسْمِهِ ، فهى داخلة فى نطاق : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ..

وإذا قرأت بِاسْمِ ربك : فأنت عابد فى أعمالك وفى أقوالك .. والعلم فى الإسلام - على الوضع الصحيح ، إذن - : عبادة ، حتى فى الجانب المادى منه .

* ولا يتأتَّى ، ولن يتأتَّى أن يقف الإسلام عقبةً فى سبيل العلم ، أو أن يتعارض الإسلام مع العلم الحديث .

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم : إنما نشأت فى أوربا بعيدة عن الجو الإسلامى ، إنها تصوِّر نزاعاً فى بيئة بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التى حثت الإنسانية على التعليم ، والتى وُلد « المنهج العلمى » الذى يسمونه «المنهج الحديث» بين ربوعها ، والتى أنشأت - على أساس من هذا المنهج - حضارة ضخمة لا نزال نكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة .

وما من شك فى أن الحضارة الإسلامية هى التى قدَّمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها وقدَّمت لها الكثير من الحقائق العلمية فى كثير من المجالات المختلفة.

إن المنهج العلمى الحديث ، فى أوربا : يرجع إلى «روجر بيكون» فهو الذى أذاعه ونشره فى أرجاء أوربا .

ويتحدث الأستاذ « بريفولت» فى كتابه « بناء الإنسانية » فيقول عن روجر بيكون : إنه درس اللغة العربية والعلوم العربية فى مدارس أكسفورد على خلفاء العرب فى الأندلس ، وليس لروجر بيكون - ولا لِسَمِيِّهِ الذى جاء بعده ـ الحق

فى أن يُنسب إليهما الفضل فى ابتكار «المنهج التجريبى » ، فلم يكن « روجر بيكون » إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يَمَلّ - قَطُّ - من التصريح بأن تعلُّم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة ، وأن المناقشات التى دارت حول واضعى « المنهج التجريبى » هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان منهج العرب التجريبى - فى عصر « بيكون » - قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكبَّ الناس باهتمام على تحصيله فى ربـوع أوربا.

ويقول « بريفولت » أيضاً : لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.

إن العبقرية التى ولَّدتها ثقافة العرب فى إسبانيا : لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سُحُب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثِّرات أخرى كثيرة - من مؤثرات الحضارة الإسلامية - بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية. اهـ .

وإذا كان الإسلام هو الذى أنشأ هذا المنهج وهذا العلم ؛ فمن الطبيعى ألاَّ يتعارض معه .

* على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم : إنما هى مسألة وهمية - إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر - :

وذلك أن العلم دائرته (المادة والحِسّ) ، أما الدين فدائرته (ما وراء الطبيعة ، والخير ، والفضيلة) ؛ فهما لا يلتقيان فى الموضوع ، فكيف يتعارضان ؟!

إن ملاحدة العصر الحاضر يتوهمون مشاكل لا أساس لها ، ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون فيها ، ويتجادلون ، وعلى مر الزمن : يضفى الإلْفُ عليها ـ وهى وهمية ـ صورةً من ظلال الحقائق ؛ فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديرة بالبحث والنظر.

من ذلك : مسألة (التعارض) بين العلم والدين ، مع أنه لا (اتحاد) بين موضوعيهما.

العلم فى الإسلام أوسع دائرة

* وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادى ، فإن الإسلام: لا يقف عند ذلك ، وإنما يوجِّه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، أَلَا وهو : القلب ، أو هو الروح والبصيرة .

إن الإسلام يوجِّه الإنسانية إلى المعرفة الإشراقية ، أو الكشفية ، أو الإلهامية .

ويجمع الإسلام الاتجاه العلمى الحديث إلى الاتجاه البصرى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[1] .

فـ (السمع ، والبصر) : هما أساس العلم المادى : علم التجربة والملاحظة .. أما القلب : فإنه أساس العلم الإلهامى .. إن الله سبحانه وتعالى يوجِّه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجِّهه أيضاً إلى الاستشراف للهداية والنور القلبى ، عن طريق الخُلُق الكريم ، والتقوى والإخلاص ، وحب الإنسانية ، والمعاونة فى الخير .

* وإذا كان الإسلام أوسع نظرة فى الجانب العلمى عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل ، فإنه يختلف معها اختلافاً جذريًّا حاسماً فى مسألة الإرادات والنوايا ، وفى أمر الأسباب والبواعث ، وفى اتجاه الغايات والأهداف ..

إن الحضارة الحديثة تقول : العلم لا صلة له بالأخلاق ، أو تقول : العلم لا أخلاقى .

والعلم ـ فى نظرها ـ لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الإسلام : يجعل أُسس العلم متسمة بالخير ، ويجعل غايته منغمسة فى

---

(١) سورة الإسراء : ٣٦ .

الخير ، ويجعل من العلم قُربَى إلى الله ، ويجعل منه عبادة للَّه ..

ومن هنا : كانت حضارة الإسلام حضارة رحمة وهداية ، لا حضارة تدمير وتخريب :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١) .

تلك حقيقة فى الدين الإسلامى، سواء نظرنا إلى أساسه، أو نظرنا إلى غايته ..

أما الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه (رحمةٌ مُهْدَاةٌ) .

* * *

٩

وبعد .. فإننا نختم هذه الدراسة بذكر الحديث الذى أتى به الإمام البخارى عن الكيفية التى استدلَّ بها هرقل على صدق الرسول ﷺ ، وهى كيفية تدل على سعة أفقه وعلى رحابة صدره ، وهى كيفية يستدلُّ بها - وعلى غرارها - كل من آتاه الله أفقاً رحباً وذكاءً موفَّقاً وبصيرة رشيدة :

« حدَّثنا أبو اليمان (الحكم بن نافع) قال : أخبرنا شعيب عن الزهرى ، قال: أخبرنى عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود : أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره : أن هرقل أرسل إليه فى رَكْب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام - فى المدة التى كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش - فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ، ودعا بترجمانه ، فقال :

أيُّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبىٌّ ؟

فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

فقال : أدنوه مِنِّى وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه:
قل لهم : إنى سائلٌ هذا عن هذا الرجل ، فإنْ كَذَبَنى فكذِّبوه.
فواللَّهِ لولا الحياء من أن يأثروا علىَّ كذباً لكذبتُ عنه .
ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نَسَبُهُ فيكم ؟
قلت : هو فينا ذو نَسَب .
قال : فهل قال هذا القول منكم أحدٌ - قَطُّ - قبله ؟
قلت : لا .
قال : فهل كان من آبائه من مَلِك ؟
قلت : لا.
قال : فأشراف الناس يتَّبعونه أم ضعفاؤهم ؟
فقلت : بل ضعفاؤهم .
قال : أيزيدون أم ينقصون ؟
قلت : بل يزيدون .
قال : فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟
قلت : لا .
قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
قلت : لا .
قال : فهل يغدر ؟
قلت : لا .. ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعلٌ فيها .
قال : ولم يمكنِّى كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .
قال : فهل قاتلتموه ؟
قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟

قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ؛ ينال مِنَّا وننال منه .

قال : بم يأمركم ؟

قلت : يقول :

اعبدوا الله وحده ، ولا تُشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم .. ويأمرنا بالصلاة والصِّدق والعَفَاف والصِّلة .

فقال للترجمان : قل له :

سألتك عن نسبه ؟ فذكرتَ أنه فيكم ذو نَسَب . فكذلك الرسل تُبعث فى نَسَب قومها .

وسألتك : هل قال أحدٌ منكم هذا القول ؟ فذكرتَ أن لا . فقلتُ : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلتُ : رجلٌ يأتسى بقولٍ قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من مَلِك ؟ فذكرتَ أن لا . قلتُ : فلو كان من آبائه من ملك لقلتُ : رجل يطلب مُلْكَ أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرتَ أن لا . فعرفتُ أنه لم يكن لِيَذَرَ الكذبَ على الناس ويكذبَ على الله .

وسألتك : أشراف الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتَّبعوه . وهم أتباع الرسل .

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرتَ أنهم يزيدون . وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ .

وسألتك : أيرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرتَ أن لا . وكذلك الإيمان حين تُخالط بَشَاشَتُهُ القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرتَ أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصِّدق والعَفَاف .

فإن كان ما تقول حقًّا ؛ فسيملكُ موضعَ قَدَمَيَّ هاتين .

وقد كنتُ أعلمُ أنه خارجٌ ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنِّى أعلمُ أنِّى أَخْلُصُ إليه لَتجشَّمتُ لقاءه ، ولو كنتُ عنده لَغسلتُ عن قدمه » ﷺ .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

خاتمة

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام والحضارة الحديثة (*)

موضوع الدين والحضارة يستدعينى أن أقول فى البداية : إننى مهما تحدثت عن الحضارة بإجلال أو بتحقير ، ومهما تكلمت عنها بنقد أو تحليل ، فإن الدين على وجه العموم لا يعارض -قَطُّ - التقدم العلمى لإسعاد الإنسانية ..

لا يعارض التقدم الصناعى لإسعاد الإنسانية ، لا يعارض فى الناحية العلمية على أية صورة كانت ما دام الأمر أمر إسعاد الإنسانية ، وإذا كانت هذه قضية مفروغاً منها ، فإننى أتجه - إذن - لتصوير نشأة الحضارة .

نشأة الحضارة :

الحضارة نشأت فى فترة معينة من التاريخ ، وفى زمن محدد نعلم ابتداءه ، ونعلم العوامل التى أنشأتها ، والتى كانت الأساس فى هذه النشأة .

وكلنا يعلم أنه فى فترة من الفترات ، كانت الكنيسة مسيطرة على العالم الأوربى سيطرة تامة : ما كان هناك شىء يُفعل ، أو شىء ينتهى فيه الأمر ، ولا شىء يُقام أو يُهدم ، وما كان إنسان يُقدِم على أمر ، وما كان إنسان يُحجِم عن أمر: إلا باستئذان الكنيسة ، وباستئذان رجال الدين . ولكن الكنيسة ورجال الدين تعسَّفوا فى استعمال سلطتهم ، حتى لقد أنشأوا «محاكم التفتيش» .

وقد كَتَبَ الأوربيون والمسيحيون عن «محاكم التفتيش» كثيراً وصوَّروها فى أبشع مظاهرها ، وفى أسوأ صورها ، كَتَبَ الكاثوليك ، وكَتَبَ البروتستانت ،

(*) هذه الخاتمة ، هى محاضرة أُلقيت فى قاعة الشيخ محمد عبده شفهيًا وأبقينا أسلوبها الشفهى دون تغيير .

وكَتَبَ الفرنسيون ، وكَتَبَ الإنجليز .. كَتَبَ كل هؤلاء - وهم رجال المسيحية - فيما يتعلَّق بهذا الأمر .

ولقد وضَّحوا وبيَّنوا أن الكبت الذى كان يغمر أوربا فى ذلك العصر : ولَّد الانفجار ، واتخذ الانفجار اتجاهاً معيَّناً ، اتخذ الاتجاه الإنسانى .

وأخذ قادة الحضارة - مبتدئين من هذا الاتجاه الإنسانى - يقررون أن الإنسان له كيانه ، له شخصيته ، له ذاتيته ، له حدوده ، له تقديراته ، له مكانته التى يجب أن يحتلَّها .. يجب أن يحتلَّ الإنسان المكانة التى تليق به .

ومن هنا كانت كلمة «الإنسانية» التى تُطلَق - كرمز مميز - على هذه الحضارة ؛ ومن هنا كان تمجيد « الإنسانية» .

ولكن حينما بدءوا يتحدثون عن الإنسان فى ثورة عواطفهم القوية ، وفى غمرة نفورهم الشديد من رجال الدين ، كانت كلمة «الإنسانية» توحى - عند قادتهم - بانفصال الإنسانية عن الإلهية ، أو انفصال الإنسانية عن الكنيسة ، أو انفصال الإنسان عن الدين ، أو - بالتعبير الحديث- انفصال الدين عن الدولة .

يجب أن يكون للإنسان مكانته ، يجب أن يكون له موقفه أمام الدين وتجاه الألوهية ، تجاه النصِّ المقدَّس ، تجاه الكنيسة ، ويجب أن يخضع كل ذلك للإنسان ..

فالإنسان له عقله ، له منطقه ، ويجب أن يسير بهذا العقل ، وبهذا التفكير ، وبهذا المنطق .

وتصوَّروا جماعة من الجماعات ، كانت السيوف مسلَّطة عليها من جميع النواحى ، ثم انفجرت هذه الجماعة فقضت على السلاح الموجَّه إلى نحرها : ماذا يكون تفكيرها بالنسبة لهذا السلاح ؟ وبالنسبة لحامليه ؟ وبالنسبة لهذا المصدر الذى كان للكبت ؟ إن تفكيرها فى أهدأ حالاته يكون معارضاً منتقداً ، ومتحمساً فى معارضته ، وفى انتقاده ، ولكن يشعر أحياناً بشعور السفَّاك النَّهِم لإسالة الدماء !

هكذا كان الأمر فى بدء الحضارة الحديثة : لقد أراد زعماؤها أن يتخلصوا من الدين ومن رجال الدين ، لتحتل الإنسانية مكانتها دون معارضة لها أو كَبْت أو تنكيل .

وحينما أقول « الإنسانية » يختلط الأمر نوعاً ما ، إذْ إن معنى هذه الكلمة اكتسب من الآلام التى نزلت بالإنسانية - فى كثير من فترات التاريخ - نوعاً من التقديس وكثيراً من التمجيد والعطف ، ولذلك فإنى - دون إخلال بالمعنى - سأستعمل كلمة « البشرية » وإذا استعملت كلمة « البشرية » كان المعنى الذى أريده أدق فيما يتعلق بالثورة الأوربية أو الحضارة الأوربية فى بدء نشأتها وفى ثورتها ضد رجال الكنيسة .

كان هناك - إذن - « الدين » من جانب ، وكانت هناك «البشرية » من جانب آخر ، وأرادت هذه البشرية أن تقف فى وجه الدين ، وأن تستقل بنفسها فى وضع أصولها ، وقواعدها ، ونُظُمها ، وأن تنتهى فى النهاية إلى أن تكون مستقلة كل الاستقلال عن جميع النواحى التى تتعلق بهذا الجانب الروحى .

وتلفَّتت الحضارة أو ممثلو الحضارة أو الذين يقومون على الحضارة ، تلفَّتوا يميناً وشمالاً ؛ بحثاً عن الأصول والقواعد التى يمكنهم أن يقيموا عليها نُظُمهم البشرية ، وتساءلوا : ماذا يمكن أن يحلَّ محلَّ الدين ؟

إن الدين نظام اجتماعى ، وتشريعى ، وأخلاقى ، فما الذى يمكن أن يحلَّ محلَّ هذه النظم ؟ إذا أردنا أن نتخلص من هذه النظم لأنها نُظُم دينية يقوم عليها رجال الكنيسة ، رجال « محاكم التفتيش » ، فما هى المصادر والمنابع التى نستقى منها، إذا أردنا أن يسود الاطمئنان فى المجتمع ؟

أما المصادر فما كان يمكن ، وما كان يتأتَّى ، إلا أن تكون مصدرين :

١ - العقل فى ناحية ما وراء الطبيعة .

٢ - والضمير فى ناحية الأخلاق .

إذن : لجأت الحضارة الحديثة - فى ما وراء الطبيعة - إلى العقل ، ولجأت فى

الأخلاق إلى الضمير : فالعقل هو الذى يؤسِّس ما وراء الطبيعة ، والضمير هو الذى نرجع إليه فى الأخلاق .

ولكن .. تخبَّط العقل : لأنه يختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ، ومن زمن لزمن ، ومن مكان لمكان ، ومن ثقافة لأخرى.

وأخذ الضمير من جانبه أيضاً يوحى بإيحاءات مختلفة : فالضمير ليس إلا أثراً للبيئة ، وللثقافة ، وللوسط الذى يعيش فيه .. ليس الضمير معصوماً - قَطُّ - وإنها لَفكرةٌ خرافية : كون الضمير معصوماً .. والضمير إذا تخلَّص من سيطرة الدين : فإنه يوحى بالفساد ، كما يوحى بالصلاح ، لأنه ابن البيئة ، فإذا كانت البيئة إجرامية فالضمير إجرامى ، وإذا كانت البيئة صالحة فالضمير صالح ، وإذا كانت البيئة أوربية فالضمير أوربى ، وإذا كانت البيئة شرقية فالضمير شرقى .

ومن الواضح أن ضمير الأوربيين لا يؤنِّبهم - قَطُّ -على السَّفك الذى يستبيحونه فى كل قطر يسيطرون عليه ، إنه يبيح -إذن - لو اتخذناه مقياساً : السَّفك والتنكيل والاستعمار .

ليس هناك - إذن - شىء ثابت مستقر معصوم اسمه «الضمير» ..

وليس هناك قضايا يتفق عليها العقل فى ما وراء الطبيعة ..

وتخبَّط العقل ، وتخبَّط الضمير ..

فما المخرج -إذن - ؟!

أسطورة التطور الإنسانى :

رأى رجال الحضارة أن يلجأوا إلى شىء يُبعد عنهم وصمة العجز ؛ فلجأوا إلى فكرة « التطور » : الإنسان متطور ، الأفكار متطورة . إذن : المسألة ليست مسألة خطأ صريح ، وإنما هى مسألة تطور فيما يتعلق بالأفكار ، وفيما يتعلق بالمعانى . ومادام هناك قانون للتطور ، إذن : فلا عيب عليهم إذا أخطأوا أو تخبَّطوا فى كل مرحلة من مراحلهم ، وفى كل فترة من فتراتهم ...

ونادى الحضاريون البشريون بفصل « الدين » عن « الدولة ».. وحينما فُصِلَ «الدين» عن « الدولة » رأت الدولة نفسها تتخبَّط حينما تستند إلى « العقل » فى نُظُمها الدينية والاجتماعية ، وحينما تستند إلى « الضمير » فى نظمها الأخلاقية ، فاخترعت أسطورة « التطور الإنسانى » فيما يتعلق بالفكر .

وكانت كلمة « التطور » هى الطلسم السحرى ، الذى يحاولون التعلُّل به ؛ لإخفاء عجز العقل والضمير الإنسانى .. لإخفاء هذا العجز المطلق الذى يجعل الإنسان متخبطاً بعقله فى أمور ما وراء الطبيعة ، ومتخبطاً بضميره فى أمور الأخلاق ؟.. لقد أخفوا كل ذلك بفكرة « التطور » .

ليس فى الأحكام القاطعة تطور :

- ولكن إذا نظرنا إلى « فكرة التطور » فى الدين والأخلاق فما معناها حقيقةً ؟

- وما معنى«فكرة التطور» إذا أدخلناها فى الفكر على وجه العموم ؟

إن فكرة التطور ما هى إلا عودة إلى السوفسطائية القديمة ، إنها عودة إلى آراء اليونان القدماء - السوفسطائية منها - لأن معنى التطور فى الفكر أنه ليس هناك قضية ثابتة - وإنما جميع القضايا الفكرية متطوِّرة ، وهذا التطور لا ينتهى إلى حد. إذن : هناك النسبية باستمرار ، هناك النسبية المطلقة ؛ هناك - إذن - الخطأ المستمر ، وهذا الخطأ لا علاج له ما دمنا نقول بالتطور ، لأنه ما دمنا نقول بالنسبية ، وبالتطور ؛ فليس هناك الثبات . إذن : لا يكون هناك ثبات فى الدين ، ولا يكون هناك ثبات فى الأخلاق .

فإذا أدخلنا فكرتهم بالتطور فى الدين فقد قضينا على الدين .. وإذا أدخلنا فكرة التطور فى الأخلاق فقد قضينا على الأخلاق .

هذه الفكرة التى أتحدث عنها : فكرة إدخال التطور فى الدين فكرة سمعناها من الكثيرين ، لقد أَلِفْنَا كلمة «التطور» ، وأَلِفْنَا كذلك فكرة إدخال التطور فى الدين إلى درجة أنه يُخيَّل إلىَّ وأنا أتحدث فيها : أن الأمر غريب على بعض الأذهان التى تتساءل : لِمَ لا يكون فى الدين تطور ؟

ولكن إذا فُهمت فكرة التطور على حقيقتها ؛ وإذا فُهمت فكرة الدين على حقيقتها : كان لا مناص من الإقرار بأن الدين لا يدخله - قَطُّ - ولا شَرْوَى نَقِير ، لا ، ولا قلامة ظفر - فكرة « التطور » .

إن التطور الفكرى تغيير من حال إلى حال ، وهو تغيير مستمر دائم ، إنه تغيير لا ينتابه هدوء ولا سكون ، إنها - إذن - النسبية ، إنها - إذن - السوفسطائية القديمة ، إنها عودةٌ إلى هذه الفترة القديمة التى لم يكن فيها دين ثابت ، ولم يكن فيها خُلُق ثابت ، فالأمر فيهما حينئذٍ عند السوفسطائيين ليس أمر ثبات مطلق ، وليس أمر عصمة ، وليس أمر قضايا محققة ، وإنما الأمر أمر تغيير باستمرار وأمر نسبية .

وبذلك يُقضى على الدين .. ويُقضى على الأخلاق .

وإنه لمن المؤسف - حقيقة - أننا نجد فكرة « التطور » تتسرب إلى الناحية الدينية ، وإلى المحيط الدينى فى الأقاليم الإسلامية ..

وهذه الفكرة لخطورتها، ولأنى أُعلِّق على إزالتها كثيراً من الأهمية : أريد أن أضرب بعض الأمثلة حتى نكون على بينة من الأمر :

قرأت فى إحدى المجلات مقالاً يقول كاتبه إن فضيلة الشيخ(...) رجل متطور واسع الأفق ، ومن مظاهر تطوره - فى رأى الكاتب - أنه يأبى إلا أن يقيم صلاة الغائب على روح « فلان » ، و«فلان» هذا - الذى ذكره الكاتب - لايدين بدين الإسلام ، وما من شك فى أن ذلك لا يجوز « إسلاميًّا » ، وما من شك فى أن فضيلة العالم الكبير لا يفعل ذلك ولا يُبيحه ، ولكن ذلك إنْ دَلَّ على شىء فإنما يدلُّ على جهل الكاتب بمعنى الحقائق الدينية التى لا تتغير بتغيُّر الأهواء والعواطف ، ويدلُّ من جانب آخر على الخطورة التى يتعرض لها الدين حينما تدخله فكرة « التطور » ، وحينما تتناوله أقلام الذين لا يعقلون دين الله على الوجه السليم .

ومثل آخر :

إننا جميعاً نُجِلُّ الشيخ محمد عبده ونحترمه ونَدِين له بكثير من تخليص الدين من الخرافات والأساطير ، ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم فنراه لا يمنع احتمال أنها تمثيل ! نتساءل : لِمَ ذكر الشيخ محمد عبده هذا الاحتمال ؟.. حينما نتساءل حقيقةً عن السر العميق - فى الشعور أو فى اللاشعور - نجد أن الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة « التطور » منتشرة فى جميع أرجاء أوربا ، بل والعالم، وهى - فيما يرى بظاهرها - تتعارض مع التعاليم التى تنبئ أن آدم هو أول البشر ، وهو الذى خَلَقَهُ الله وسَوَّاه ، وخاطبَ الملائكة فى شأنه وأمرهم أن يسجدوا له ..

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيراً مع فكرة «التطور» المزعومة .. فماذا صنع ؟ ذكر هذا الاحتمال ، وبذلك يمكننا أن نؤوِّلها كيفما شئنا، وما كنا نود أن يجيز ذلك ؛ إذ إنه يفتح للناس باب التأويل فى صورة من الاستفاضة الضَّارَّة .

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يفسر اختلاف رسالات الرسل وتعاقبها - موسوية وعيسوية وإسلامية - بتطور الإنسانية ، إن الإنسانية - حسبما يرى - حِسِّيَّةٌ فى زمن موسى ، فكانت رسالة سيِّدنا موسى حِسِّيَّةً ، ثم تطورت الإنسانية من الحِسِّ إلى العاطفة فكانت رسالة سيِّدنا عيسى عاطفيَّةً ، ثم تطورت الإنسانية من الحِسِّ والعاطفة إلى العقل فكانت رسالة سيِّدنا محمد عقليَّةً .

ورأيى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور ، وأن الإنسانية أينما سرنا وعند أى فرد رأينا ، وفى أى مجتمع شاهدنا ، فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاثة : الحِسُّ ، والعاطفة ، والعقل ، ولكن فكرة « التطور » وأن الإنسانية متطورة انتهت بأن أصبحت مسيطرة على الكثيرين فانقادوا لها ، وأدخلوها فى المحيط الدينىْ ؛ فأفسدت كثيراً من القضايا . ونعود فنترحَّم على الشيخ محمد عبده ، وإذا كنا ننتقده ونحن نحاضر فى قاعته ؛ فذلك أننا نعلم أنه - رحمه الله - كان من سعة الصدر ، ومن سعة الأفق ، بحيث لا يضيق بنقد ، ونعتقد أنه لا يضيق الآن بنقدنا .

ونأتى إلى شخصية أخرى نمجِّدها أيضاً ونحترمها : شخصية محمد إقبال ، وإن جهاده بالنسبة للإسلام ، وجهاده بالنسبة للمسلمين لا يُنكَر .

ولكنه لم يستطع أن يتخلَّص من فكرة «التطور» فى بعض المسائل كما رأى ، فليراجعها من شاء فى آرائه وفلسفته .

أيها السادة :

كلكم تعلمون أن الدين عقيدة وأخلاق وشريعة ، وتصوير «التطور» فى العقيدة ، أن نقول مثلاً : اليوم ربنا واحد ، أما غداً فإنه - سبحانه وتعالى عن ذلك - يكون اثنين ؟ !

وتصوير «التطور» فى الأخلاق ، أن نقول مثلاً : إن الصدق اليوم فضيلة وغداً يكون رذيلة ، أو الصدق اليوم فضيلة وهو غداً ليس بفضيلة ولا رذيلة !

فأنتم ترون أنه لا تطور فى العقيدة ، ولا فى الأخلاق .

لكنَّ الشُّبَهَ تُخلق فى بعض الأذهان حول التطور فى التشريع ، والذى يُوجِدُ الوهم بهذه الشُّبَهِ هو : باب الاجتهاد ، والمنطق يقول إنه مادام هناك اجتهاد فى التشريع فسيكون هناك تطور فيه ، ولكن الذى يقول هذا الكلام لا يفهم معنى الاجتهاد ، أو هو يفهم معناه ويحاول أن يتجاهله . معنى الاجتهاد وحقيقته ، إنما هو المحاولة الجادَّة المستمرة للوصول إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، من أجل اتِّباعه ، ومن أجل إدخال المسائل الجديدة تحت القواعد القديمة التى استُنتجت من كلام الرسول ﷺ ومن القرآن .. وليس للاجتهاد معنى آخر غير هذا .

وكل المجتهدين : الإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل ، والإمام أبو حنيفة، والإمام مالك - كلهم يقولون : إذا صَحَّ الحديثُ فاضربْ برأيى عرض الحائط : أى أنه إذا رأى رأياً من الآراء ملتمساً فى هذا الرأى أن يكون موافقاً لكلام الرسول ﷺ ثم تبيَّن فيما بعد أنه أخطأ ؛ لأن الحديث يفيد غير ذلك ؛ فإن كلامه ورأيه لا قيمة لهما ، ويجب أن يُطرَحا ويُهمَلا وأن يُأخذَ بكلام الرسول ﷺ.

إذن : ليس فى الاجتهاد «تطور» .

إن العقل كمنبع لما وراء الطبيعة ، والضمير كمنبع للأخلاق ... كل هذه هى «البشرية» فى مقابلة «الألوهية» ، فى مقابلة النص .. اعتمدت -إذن - الحضارة الحديثة على البشرية فى مبادئها وقواعدها ، فكانت النظم الاجتماعية المختلفة ، والنظم الأخلاقية المختلفة ، وكان الهدم فى كل يوم ؛ وانتهت فى بعض الميادين الفكرية الاجتماعية إلى ما كان يمكن أن يُتصور أن تنتهى إليه :

لقد انتهت بتفسير أو تصوير رائع لآية قرآنية كريمة هى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾(١) .

وأريد أن أشرح معنى هذه الآية فى إيجاز : إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره ، فالسموات من آيات الله ، والأرض من آيات الله ، والأشجار من آيات الله ، والأنهار والجبال والمحيطات والنجوم والكواكب : كل ذلك من آيات الله .. هذا الإبداع المُحكَم الذى يحيط بالإنسان من جميع أقطاره، هذه الآيات التى تحيط بالناس أينما كانوا والتى تنادى بجلال الله وعظمته ... حاول بعض الناس الانسلاخ منها - فلم يقرُّوا بالألوهية الإقرار السليم . والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون .. لقد حاولوا الانسلاخ منها وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان ، وانسلخوا منها بعدَ لأيٍ ، وعلى خلاف الفطرة ، وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعى ، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية ، إنهم خرجوا عن سرادق الألوهية ، وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله ، فتهيَّأوا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان ، وسهل على الشيطان غزوهم ، فغزاهم بخيله ورَجْلِه فكانوا من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم ؛ إذْ أخلدوا إلى الأرض .. وما من

(١) سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .

ريب فى أن الإخلاد إلى الأرض - فى أبشع صورة - هو «الشيوعية».

واتَّبعوا أهواءهم .. وما من شك فى أن اتِّباع الهوى - فى أسمج صورة - هو «الفلسفة الوجودية» .

وسواء كنا بصدد الشيوعى أم بصدد الوجودى ، فمثله كمثل الكلب : إنْ تَحْمِلْ عليه يلهثْ ، أو تتركه يلهثْ .

- ولكن لِمَ يلهث سواء حملتَ عليه أم تركته ؟

إن الشيوعى ليس همه إلا المادة ، والإخلاد إلى الأرض ، ومهما بسط الله له فى الرزق فهو ضيِّق بذلك ، وإذا ضيَّق الله عليه الرزق فهو ضيِّق بذلك أيضاً .. إنه لا يطمئن إلى شىء روحى يقنعه ، والمادة - مهما أُوتى الإنسان منها - فإنها - ما دام جشعاً - لا تنتهى إلى إرضائه ..

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالوجودى : فإنه - وقد آثر اتِّباع الهوى - وليست الوجودية إلا إيثار اتِّباع الهوى - فإنه لا يعتمد على هادٍ يُطمئنه ، ولا على اطمئنان يُسكِّنه ، وهو ضيِّق بالحياة ذرعاً ، سواء كان سعيداً أو شقيًّا ، فمثله كمثل الكلب: إنْ تَحْمِلْ عليه يلهثْ أو تتركه يلهثْ .

انتهت الحضارة إلى أمثال هذه النظم التى لا ترى إلا المادة أو لا ترى إلا البشرية الهاوية أو الغاوية ، وانتهى الأمر بالشيوعى والوجودى إلى ما كان لا مفر من أن ينتهى إليه ، وهو انفصال الشيوعى وانفصال الوجودى عن المحيط الإلهى ، عن السرادق الإلهى .

ومما لا شك فيه : أن هذه النظم التى لا تتصل بالعصمة إنما تتخبَّط وتكون باستمرار متأرجحة متقلِّبة ، ولا تستقر استقراراً نسبيًّا إلا بالحديد والنار ، وبالسلاح ، وبسفك الدماء ، وبالقتل . وإن ما وراء «الستار الحديدى» يمكن أن يكون صورة لكل هذا الانفصال عن الألوهية ، الذى لا يستقر إلا بالحديد والنار .

تلك أُسس الحضارة ومنابعها ، ومصادرها : عقلٌ ، فضميرٌ ، فتطورٌ ، فانتهاءٌ إلى أمثال هذه النظم التى خرجت بالإنسان عن الجَادَّة .

«الدين» - إذن - لا يعارض التقدُّم فى سبيل إسعاد البشرية .. هذه قضية نحن مُسلِّمون بها .

الإسلام :

نريد أن نتحدث عن الإسلام ، وتكفينى كلمة « الإسلام » ، تكفينى هذه الكلمة ؛ للدلالة على أن هذا الدين صحيح ، مُنزَّل من عند الله. إن معنى الإسلام : الاستسلام لله فى كل مظهر من المظاهر، وفى كل حركة من الحركات ، وفى كل أمر من الأمور . وتصوِّر المعنى لهذا التعبير الرائع الآية القرآنية الكريمة:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١) .

إن هذا التصوير للإسلام فى هذه الآية الكريمة رائع حقًّا : استسلام لله ، أى: دخول فى النطاق الإلهى .. ابتعاد عن الهوى والشيطان .. إنه إسلام الوجه لله. فرق كبير بين هذا وبين الخروج عن النطاق الإلهى بالشيوعية أو بالوجودية .

وفيما يتعلق بالإسلام هناك النظم المعصومة .. هناك الأخلاق المعصومة والتشريع المعصوم . هناك - إذن - العصمة كاملة ، ولكن الاستسلام لله يقتضى شيئاً آخر هو الجهاد والكفاح المستمر من أجل الحق والخير وإعلاء كلمة الله ، فإذا لم يكن هناك جهاد من أجل الإسلام فلا إسلام ، ومن لم يجاهد من أجل إسلامه فليس بمسلم . هناك - إذن - الجهاد ، وهناك الاتجاه إلى جعل الإنسان ربانيًّا أو إلهيًّا .

- ولكن ما هى السُّبُل التى رسمها الإسلام لجعل الإنسان ربانيًّا ؟

- لقد :

١ - ضَمِنَ الله الرزق .

٢ - وحدَّد الآجال .

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣ .

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[1] .. ولضعفنا وانشغالنا بالرزق والحرص عليه أكَّد الله ضمانه بقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[2] .

وحدَّد الله الآجال ، وضرب لذلك أوضح الأمثال .. فلو فرضنا أن إنساناً فى برج مشيد وكُتِبَ عليه القتل ؛ لخرج من هذا البرج المشيد إلى القتل :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[3] .

إذن : فالآجال محدَّدة ، والأرزاق مضمونة ، فماذا بعد ذلك إلا الاتجاه إلى الله كليةً ، وبكل ما تملك ، وبكل ما تحس ، وبكل ما تشعر .

وليس الاتجاه إلى الله كسلاً ؛ فالأعمال عبادة ما دمت متجهاً بها إلى الله : حركاتك وسكناتك وأنفاسك ، إذا اتجهت بها إلى الله فهى عبادة . فالعامل فى معمله إذا اتجه بعمله إلى الله فهو عابدٌ ، والصانع فى مصنعه عابدٌ إذا كان متجهاً بعمله إلى الله . ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله بعمله ، وصناعته ، وحركاته وسكناته ؛ فهجرته إلى الله ورسوله ، والله يُثيبه على فعله .

إذا كان الله قد ضَمِنَ الرزق ، وحدَّد الآجال ؛ فليس هناك مطلقاً عذر من الأعذار للمسلم لأن يتخاذل ، وأن يتكاسل ، وأن يتواكل .

والصورة المثلى فى ذلك : إنما هى صورة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فى كفاحه الذى لم يفتر ، وجهاده المستمر ، وهى صورة للمتأسِّين به يجب أن تُحتذَى .

---

(١) سورة الذاريات : ٢٢ .

(٢) سورة الذاريات : ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران : ١٥٤ .

- ولكن لِمَ الجهاد ؟ ولِمَ الكفاح ؟

هناك رسالة إسلامية ونحن مكلَّفون بها .. ونحن لا نقول إن «الأزهر» -فحسب- هو المكلَّف بها ، وإنما نقول : إن كل مسلم مكلَّف بهذه الرسالة .

وهذه الرسالة الإسلامية تصوِّرها الآية الكريمة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

والرحمة بالإنسانية : إنما هى إخراجها من دائرة الشيطان إلى دائرة الله سبحانه وتعالى .. إخراجها من التناحر ومن التنازع من أجل المادة ، إلى السُّمُوِّ فى آفاق الأخوَّة ، وفى آفاق الرحمة الشاملة العامة . هذه الرسالة الرحيمة الرحمانية التى حددها الإسلام بنُظُمه ومبادئه - والتى كلَّفنا بها ، وكنا خير أمة أُخرجت للناس من أجلها - إذا لم نقم بها فى وجه الحضارة الحديثة ؛ لا نكون مسلمين أو على الأقل لا نكون فى عملنا السلبى من الذين يتأسَّون بصاحب الرسالة الإسلامية ﷺ ، ولن يكون لنا الفخر بأننا من حملة الرسالة الرحمانية ، ورسالة «الرحمة المهداة» .

اعتزاز المسلم بدينه :

والواقع أن المسلم يجب أن يفخر حقيقةً بدينه وبنُظُمه وبرسوله ﷺ وبأُمَّته .. ودون أن نريد موازنة فى قليل ولا كثير ، نرى مثلاً أن هذا الشيخ الوقور سيِّدنا نوحاً - عليه السلام - الذى عاش فى قومه دهراً يدعوهم إلى الله ، انتهى به الأمر بأن كانت كل الحصيلة «مجموعة» حُمِلَتْ فى سفينة .

وإذا جئنا إلى سيِّدنا موسى - عليه السلام - نجد أنه حين أراد القتال ؛ قال له قومه : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٢).

ومن الصور القرآنية الطريفة جدًّا : أن سيِّدنا موسى - عليه السلام - بعد أن جاهد فى قومه هذا الجهاد بالدعوة والإرشاد والنصيحة ، تركهم فترة وتقدَّمهم

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) سورة المائدة : ٢٤ .

قليلاً ، فخاطبه الله بقوله : ﴿ وما أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1] ، فذكر كَلِيمُ الله أن قومه هم أولاء على أثره. ولكن الشوق والحب حملاه على ذلك : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ . وجميل هذا، لكن انظروا إلى التربية الحكيمة فى الأسلوب المهذب ، هذا الأسلوب الذى كأنه يقول : إنك لم تُحكِمْ أمر الدعوة من ورائك ، وإنَّ إحكام أمر الدعوة إنما هو لقاء الله : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾[2] .

وإذا جئنا إلى سيِّدنا عيسى - عليه السلام - فإننا نجد أن سيِّدنا عيسى حين رفعه الله إليه ، لم يكن هناك من يُقِرُّ برسالته إلا بضعة أفراد يُعَدُّون على الأصابع، أو يُعَدُّون بالعشرات ، وأكبر تقدير لأتباع سيِّدنا عيسى أنهم كانوا ثلاثمائة .

أخذ سيِّدنا موسى - عليه السلام - قومه من مصر فارًّا بهم ، ولم يقاتل ولم يجاهد ، وحين أدركه فرعون لم يتوجَّه إلى القتال وإلى الجهاد ، وإنما توجَّه إلى الله ، فأمره الله بضرب البحر بعصاه ، فضرب البحر فانفلق فكان كلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العظيم ، ومر موسى وقومه آمنين دون جهاد ودون كفاح .

وسيِّدنا عيسى - عليه السلام - لم يتوجَّه إلى القتال ولا الكفاح فى سبيل إعلاء كلمة الله التى هى الحق والخير .

ولكن إذا جئنا إلى سيِّدنا محمد ﷺ : فإننا نجد مباشرةً العزمَ المصمِّمَ والإرادةَ النافذة .

يجب أن يَدِينَ العالم لله وأن يُسْلِمَ وجهه لله ، لتلك الرسالة الإسلامية ..

ويجب أن يقف محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ولو بمفرده - فى وجه العالم كله ، وفى وجه الكون بأكمله، وفى وجه هذه الدنيا .

يجب أن يَدِينَ العالم ؛ يجب أن تَدِينَ السماء والأرض ، وأن يَدِينَ البشر

---

(١) سورة طه : ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) سورة طه : ٨٥ ، ٨٦ .

بأجمعهم لرسالة السماء . ووقف سيِّدنا محمد ﷺ يجاهد ويجالد ويكافح ويتخطَّى العقبات ، ويتغلب على الصعوبات إلى أن انتهى به الأمر إلى النصر الكامل ، بالكفاح فى سبيل الحق . الكفاح - إذن - جزء لا يتجزأ من الرسالة الإسلامية.. إنه الكفاح من أجل الله ، لا من أجل مادة الشيوعيين .. الكفاح من أجل الله ، لا من أجل أهواء الوجوديين .

إن الرسالة الإسلامية رسالة رحمة ورسالة كفاح من أجل الرحمة ، ورسولها خيرُ معبِّر عنها بسلوكه ومواقفه ، فمن لم يتأسَّ بالرسول ﷺ ومن لم يكافح فى سبيل الإسلام؛ فليس له أن يفخر بأنه مسلم.. فضلاً عن أن يزعم أنه مسلم مثالى .

تغلَّب محمد رسول الله ﷺ على كل عقبة ، وزلزل كل صعوبة ، وحطَّم كل صنم ، وانتهى به الأمر إلى أن شاهد ارتفاع الأذان الإسلامى فوق الكعبة وفى مكة التى كانت تأبى كل الإباء أن تَدِينَ لله وأن تُسْلِمَ وجهها لله وحده .

مهمتنا جميعاً - إذن - هى مهمة الرسول ﷺ : تحطيم الأصنام ، تحطيم صنم الشهوة والهوى المتغلغل فى النفس ، وتحطيم صنم المادة ، ونشر رسالة الحق والرحمة.. حتى ننتهى من كل ذلك بأن يُسْلِمَ العالم وجهه لله .

فإذا انتهينا إلى ذلك .. أو إذا حققناه ؛ كنا فى رضوان الله ، وكنا من هؤلاء الذين رضى اللَّه عنهم ورضوا عنه .

وإنى لَأرجو فى النهاية : أن يتكاتف المخلصون فى العالم الإسلامى، ويتساندوا ؛ ليقفوا أمام هذا الزحف المتتابع من المدنيَّة الغربيَّة، التى تريد أن تطمس الإسلام فى أهدافه، وفى نُظُمه ، وفى تعاليمه ، وفى أقدس مقدَّساته .

إذا أمكن أن يتكاتف المخلصون ؛ فإن الأمر سينتهى بالنصر .. أما إذا لم يتكاتفوا فإن ذلك لا يُعفى كل مسلم - منفرداً - من العمل الجادِّ فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والعمل على سيادة المبادئ الإسلامية ؛ ففيها سعادة العالم إن شاء الله تعالى .. وبالله التوفيق .

* * *